عناية جامع الزيتونة بالسنة النبوية المشرفة

بقلم

د. أبو لبابه الطاهر حسين

الباحث في كلمات

الاســـم	:	د. أبو لبابة الطاهر حسين.
تاريخ ومكان الميلاد	:	١٩٤٠م ـ قابس ـ تونس.
المؤهلات العلمية	:	الإجازة في أصول الدين ١٩٧٢ ـ كلية الشريعة وأصول الدين ـ الجامعة التونسية. المـاجستير في الحديث وعلومه ١٩٧٤م ـ كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر. الـدكتـوراه في الحديث وعلومه ١٩٨٣م ـ كلية أصول الدين ـ جامعة الأزهر.
العمل الحالي	:	أستاذ مشارك بقسم السنة وعلومها بالكلية.
أهم المؤلفات والبحوث	:	كتـاب الجـرح والتعـديل ـ موقف المعتزلة من السنة ـ التـربية فى السنـة النبـوية ـ الإسلام والحرب ـ موقف متصوفة إفريقية وزهادها من الاحتلال الشيعي ـ بحث فى حجية خبر الواحد ووجوب العمل به، نشرته المجلة العلمية لكلية الشريعة وأصول الدين بتونس ـ بحوث عن اجهتاد الرسول ـ مقومات التضامن الإسلامى ـ الإسلام والعلم، نشرتها مجلة الهداية التونسية. بالإضـافـة إلى عدة بحـوث أخرى نشرت فى صحف ومجلات تونسية وفِـي مقدّمتها مجلّة «جوهر الإسلام» العريقة.

عناية جامع الزيتونة بالسّنّة النّبويّة المشّرفة[1]

مقدمـــة :

لقـد كانت العنـايـة بالسُّنّـة النّبوية الشريفة في إفْريقية[2] وسائر بلاد المغرب وَآلأنْدَلُس عظيمةً، منذ دُخول آلإسلام إلى رُبُوعها[3]، فقَدِ آسْتطاعت طلائع الفتح الأولى من الصحابة والتابعين أن يوقفوا الناس في هذه البلاد على عظمة الإسلام وإنسـانيّتـه وقُدْرَته على الاستجابة لحاجات البشر في إطارٍ من العدل والمساواة وآلحقّ بمعنـاه الأوسـع. كمـا تمكّن هذا الرعيل الأول من المجاهدين أن يُثبتوا بآلقُدْوة الحسنة وآلمَثَل الخيِّر أنّ الإسلام عقيدةٌ وعَمَل يمارِسُه الناس في حياتهم اليومية، وأنَّ الجليلَ من أُمورهم والحقيرَ يَدْخُل تحت طائلة حُكْمٍ من أحكامه، وأنّ هذا الشرع لن يبقى سَويًّا نقيًّا وفعّالاً في خدمة الإنسان إلاّ مَتَى حافَظَ أهلُه على منهج الرَّسُول محمد صلى الله عليه وسلم، ومتى آهْتَدْوا بهَدْيِه وتَخَرَّجُوا على توجيهه.

ومِنْ هُنَـا كان تعلُّق النّـاس بسُنّـة الرسول عليه الصلاة والسلام فنَبَذُوا كُلَّ ما

---

(١) أُلقِيَ هَذَا آلبحث بمناسبة آلاحتفال بمرور ثلاثة عشر قَرْناً على تأسيس الزّيتونة (تونس ـ ٢٥ آلمحرّم ١٤٠٠/ ١٥ ديسمبر ١٩٧٩ ـ ٢ صفر ١٤٠٠/ ٢١ ديسمبر ١٩٧٩.

(٢) إفـريقيّة: آلاسم آلتّـاريخيّ للبلاد التونسيّة، وحُدُودها قد تمتدّ لتشمُلَ جَانبًا من شرق آلبلاد الجزائريّة (عَنّابة وقسَنْطِينة) وقسمًا من شمال ليبيا، وقد تتقلصّ دون حدودها الحالية حسبَ قُوّة الدّولة القائمة على تُرَابها (وانظر التعريف بإفريقيّة في معجم البلدان ـ باب الهمزة والفاء وما يليهما).

(٣) كانت غزوة العبادلة السّبعة سنة ٢٧هـ أولى طلائع الفتح الإسلامي لإفريقية، وقد كُللت بالنصر حيث هُزم الجيش البيزنطيّ وقُتل قَائِدُهُ جرجير على يد عبدالله بن الزبير رضى الله عنه عند مدينة سبيطلة ثمّ تتابعت جهودُ المسلمين في القضاء على الانتفاضات المتوالية إلى أن تمكّن عُقبةُ بن نَافع من بناء آلقيروان وجامعه الشّهير سنة ٥٠هـ، وآنتقضت البلادُ بعد ذلك من جديد، فَعَاوَدَ المسلمون الكرّة إلى أنْ تمّ الفتحُ النّهائي على يد حسّان بن آلنّعمان سنة ٧٨هـ.

يُجَافِيهَا، ولذلك لم تسْتَطِع ٱلمذاهبُ المبتدِعَة أن تُعَمِّر طويلا في هذه البلاد، فما تطفُو على السطح حتى يَلْتَفَّ حَوْلَهَا الوعيُ السُّنِّيُّ فيدْحَرَهَا ويَفِلَّ أَسْلِحَتَهَا مهما كانت عاتيةً ومُرْهِقَة، ذلك أن السُّنَّة تأصّلت في نفوس الشَّعْب بحيث صارت تجري من عروقه مجرى الدم، فلا يَبْغِـي بها بَدِيلاً ولا عنها تحوُّلاً، فكانت هذه البلادُ مُمَثَّلَةً في جَامعِهَـا الأعـظم المَسْجـدِ العتيق الـذى قال عنـه الشيخ عبدالوهاب الشعراني في بعض كُتبُه: (ممّـا يُلْحَقُ بالمساجد الثلاثة)[1] قَلْعَةً من قلاع السُّنَّةِ المُشَرَّفَة وموردا عذبا لفنونها وعلومها المختلفة.

ٱلسُّنَّة في عهد الوُلاة والعهد الأغلبي :

فقـد عَرَفَتِ البـلادُ الحـديثَ النبويَّ اذاً منذُ الفتح على أيدي جيش الإسلام المؤلَّف من عدد كبير من الصّحابة، وفيهم جمعٌ من المكثرين في رواية الحديث أمثال عبدِالله بْن عباس، وعبدِالله بْن عَمْرو بن العاص، كما يضُمُّ هذا الجيش عدداً كبيرا من ٱلتّابعين، ولا يخلو جانبٌ منهم من شَغَفٍ بالحديث وإلْمَامٍ به لا يَمْنَعهُم الجهادُ دون تَحْصِيلِهِ وطَلَبِهِ وتَمَثُّله وتطبيقِه، ثم نَشْرِهِ، سيما وتعلُّمه ونَشْرُهُ من تمام الإيمان وكَمَالِه.

وما أن قُضِيَ على فلول البيزنطيين وأنصارهم، واستقامتْ حياةُ الناس في ظِلِّ الإسـلام، حتى تاق أبنـاءُ هذه البـلاد إلى المـزيد من المَعْرِفَةِ بالدّين وأُصُوله، واستجاب الخليفةُ الصالحُ عُمَرُ بْنُ عبدالعزيز (ت ١٠١هـ) لهذا الدَّاعِي، فبعث بعَشْـرَةٍ من التـابعين إلى إفـريقية يُقْرِئُـون الناسَ القرآن ويُعَلِّمُونَهم سُنَّةَ الرسول ويُحِيطُونَهُم بآداب الإسلام، ويُوقِفُونهم على شريعته السمحة.

والملاحظ أن جل هؤلاء العشرة[2] من رجال الكتب الستة وقد ترجم لهُم ابنُ حَجَر العسقلانى في تهذيب التهذيب:

---

(١) الحلل ٱلسّندسيّة ٥٧٤/٣/١.

(٢) وهؤلاء العشرة هم: عبدالله بن يزيد المعافري ـ سعيد بن مسعود التجيبى ـ عبدالرحمان بن رافع التنوخي ـ جُعْثُل بن هاعان بن عمرو الرعيني ـ إسماعيل بن عبيد الله المخزومي ـ حبان بن أبي جبلة القرشي ـ طلق بن جابان الفارسي ـ موهب المعافري ـ عبدالله بن المغيرة الكناني ـ إسماعيل بن عبيد مولى الأنصار.

مثلُ إسماعيلَ بْنِ عبيدالله بن أبي المُهَاجِرِ المخزومي[1] (٦١-١٣١هـ) فقد خرّج له الشيخان في صَحِيحَيْهِمَا وأبوداود والنسائي وابن ماجهْ في سُننهم، وكان حَسَنَ السيرة نبيلَ ٱلْمَسلَكِ وقد استطاع بما وَهَبَهُ الله من الحِكمة في الدعوة إلى الله أن يَتْرُكَ الاثَرَ العَمِيقَ في نُفُوسِ أبناء إفريقية[2].

ومثلُ عبدِالله بْنِ يزيد المعَافري[3] الذي خرّج له مسلم في صحيحه، وأصحابُ السُّنَنِ ٱلأربعة، كما روى له ٱلبُخاري تعليقاً في جامِعِه، وقد تلقّى العلمَ من عددٍ جَمٍّ مِنْ وُجُوه الصَّحَابَةِ وعُلَمَائِهِمْ أمثالِ: عبدِالله بْنِ عَمْرو بْنِ العاص وعبدِالله بْنِ عُمَر وأبي ذرٍّ الغفاريّ وأبي أيوبِ الأنصاريّ وأبي سعيد الخُدْري وجابر بن عبدالله وغيرهم وقد وثَّقَهُ ابنُ سعد والعجلي كما ترجم له ابنُ حبان البستي في الثقات، وقد تُوِّجَتْ مُهِمَّتُه بإفريقية بنجاح باهر حيث (بثّ فيها علما كثيرا) على ملحظ أبي بكر المالكي - في تاريخ القيروان.

وَمِنَ ٱلمَعْلُوم أنّ السّلفَ يُطلقون عبارَة العلمِ ويريدون بها حديثَ رسول الله صلى ٱللّه عليه وسلم[4].

ولئن شغلَ الجهادُ والقضاءُ بعضَ هؤلاء العشرة فإن ذلك لم يَغُضَّ من جُهُودِهم في تعْليمِ الناسَ الشرْعَ وتَرْبِيَتِهِمْ بِسُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم ونَشْرِ الوعي الإِسلامي في ربوع البلاد شمالِها وجنوبها شرقِها وغربها الأمرُ الذي كان له أحسنُ الأثر في تحريك عَدَدٍ من الشَّبَاب وإثارةِ شَوْقِهِمْ إلى الرِّحْلَةِ إلى المشرق ليكرعوا من ورد مَدَارِسِهِ الحافلة بكبار العُلماءِ.

---

(١) تهذيب التهذيب ١/٣١٧ عدد ٥٧٦.

(٢) فَقَدْ أسلم عامّةُ البربر في ولايته، ذلك أنّ عمر بن عبدالعزيز قد ولّاه إفريقية.

(٣) تهذيب التهذيب ٦/٨١ عدد ١٦٢.

(٤) جاء في فتح الباري قول أحد العلماء (وكان السّلف يُفرّقون بين العلم والرأي فيقولون للسّنة علم وَلَمَا عداهَا رأي) ١٣/٢٩١ - طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض - وأطلق الخطيب البغدادي على كتابه الذي يتناول فيه بالدّرس كتابة الحديث وما يتعلّق بذلك من القضايا اسم «تقييد العِلْمْ».

وفِعْلاً فقد تاقت نفوسٌ إفريقيةٌ طَمُوحَة إلى مزيد من العلم فارتحلت إلى المشرق لتقضِيَ هنالك ماشاء لها اللهُ من السنين ثم تعودَ وقد امتلأت أوطِبَتُهَا عِلْمًا، وكان أبرزَ ما عاد به رُوَّادُ العلم الأول من الطلاب الأفارقة إلى بلادهم الموطأ ـ أولُ الكتب الصّحيحة ـ وفِقْهُ مالك بن أنس إمام دار الهجرة الأمر الذي أَهَّلَهُم ليُؤسّسُوا المدرسة الإسلامية الأولى بإفريقية سيما وكان أبوعُمر خالدُ بنُ أبي عِمْرَان زيد التجيبي التونسي[1] ـ (ت ١٢٥ـ ١٢٩) قد هيّأ السبيل وأوجد المناخ الملائم لبروز كفايات علمية عالية، نظراً لِعِلْمِهِ الواسع الّذي تلقّاه عن نخبة مِنْ نُجَبَاءِ علماء المدينة من التابعين أمثال سالم بن عبدالله بن عُمَر، ونافع مولى ابن عُمَر أحدِ حلقات سلسلة الذهب في الحديث، وعُروةَ بْنِ الزبير وغيرِهِمْ، وقد تتلمذ عليه يحيى بن سعيد الأنصاري راوي حديث (إنما الأعمال بالنيَّات)[2] الذي كثُرَ رواتُه من تلاميذه فخرج الحديث من طور الْغَرَابَةِ إلى الشُّهرة والاستفاضة، حتّى توهّم العديدُ من الناس أنَّهُ حديث متواتر كما تتلمذ عليه الليثُ بنُ سعد (٩٤ـ ١٧٥هـ) محدِّثُ مِصر وغيرُهم من أَسَاطين الحديث في عصره .

ولاشك أن جامع الزيتونة ولئن كان في بدايةِ تأسِيسِهِ[3] ـ في عهد هذا المُحَدِّث والفقيهِ التونسي الأول ـ فإنه قد شهِدَتْ رحابُه بعضَ دروسه سيما ورسالةُ المسجد منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى عصور متأخرة ـ تتمثل في الإرشاد والتعليم الإسلامِيَّيْن بالإضافة إلى القضاء والفتوى. . .

وسواء أكانت دروسُه بالزيتونة أو في بيته فإنه يُعَدُّ أول من رَكَّز العلم بتونس[4] قبل أنْ تُصْبِحَ حاضرة في العهد الحفصي، بل فإن بعض الدارسين يطلقون على

---

(١) تهذيب التهذيب ٣/ ١١٠ عدد ٢٠٥ .

(٢) أخرجه البخاري في جامعه ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم (متن فتح الباري ١/ ١٠ـ ١٩) ويقول ابن حجر العسقلاني عن هذا الحديث: متفق على صحته وأخرجه الأئمة المشهورون (فتح الباري ١/ ١٢)

(٣) أسّسه عُبَيْدالله بن الحَبْحَاب سنة ١١٤هـ (الحلل السندسية ١/ ٣/ ٥٧٤) ولمزيد من التفاصيل انظر الكتيّب الذي نشره فضيلة الشيخ محمدّ الشّاذلي النيفر حول جامع الزيتونة.

(٤) مقدمة موطأ علي بن زياد ١٥ .

طريقته العلمية اسم مدرسة ويجعلونها تتميَّز برواية الحديث وتتأثَّر بمنهج المحدّثين بناء على أنّ شيوخه من كبار المحدّثين، وأنّ أصولَ رسالته الفقهية التي أَلَّفَهَا من أجْوِبَةِ أساتذته من آلفقهاء آلسَّبعة[1] بالمدينة وغيْرِهم على أسْئِلَتِهِ مُسْتَمَدَّةٌ من حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام فَهْيَ عَلَى غِرَارِ آلموطأ[2].

ونالت هذه المدرسة مَدَداً قويًّا على يدَيْ عالم تونسي آخر هو أبوالحسن علي بن زياد (ت ١٨٣هـ) الذي كان قد جاب أمصار الشرق فزار مصر وَآلْحِجَاز والعراق وأخذ عن علمائها أمثال سفيان الثوري (ت ١٦١هـ) الذي نقل عنه جامِعَهُ[3] والليث ابن سعد ومالك بن أنس، وما عاد إلى وطنه تونس إلَّا وقد أَلَمَّ بِأهَمِّ عِلْمِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ.

وقد أَصَّلَ رضي الله عنه المذهبَ المالكي بإفريقية فكان أوَّلَ من فسَّرَ لأهل المغرب قَوْلَ مالك في آلموطأ تماما كما أَصَّلَهُ يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ) راوي الموطأ في الأندلس.

وقد جرى على نَسَقِ سلفه في إقامة دعائم المدرسة التونسية على (فقه الموّطأ المُؤَسَّس على الدعائم آلصّحيحة من آلحديث وآلآثار)[4] وقد أَهَّلَهُ علمُه الواسِعُ بسُنَّة الرسول إلى تأليف كتاب في البيع أطلق عليه اسم (كتابٌ خَيْرٌ من زِنَتِهِ)[5] ـ أي ذهبا ـ فكان بِدُرُوسِهِ وتأليفه (آلمكيِّفَ للعقول بآلسُّنَّة الصحيحة)[6].

ومما زاد في إِشْعَاع عليّ بن زياد ودَعْمِ مدرسته أنّه تخرَّجَ على يديه فطاحِلُ في

---

(١) الفقهاءُ السبعة هم ـ القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت ١٠١هـ) ـ سعيد بن المسيب زوج بنت أبي هريرة (ت ٩٤هـ) ـ عروة بن الزبير بن العوام (ت ٩٤هـ) خارجة بن زيد بن ثابت (ت ٩٩هـ) أبوبكر عبدالرحمن بن الحارث بن هشام (ت ٩٤هـ) ـ عُبيدالله بن عبدالله بن عتبة (٩٨هـ) سليمان بن يسار (ت ١٠٧هـ).

(٢) المصدر السابق ٢٢.

(٣) الحلل السندسية ٧٠٨/٣/١ ـترتيب المدارك للقاضي عياض ٨٠/٣.

(٤) تقديم موطأ علي بن زياد ٤٣/٤٤.

(٥) المصدر السابق ٤٧ ـ الحلل السندسية ٧٠٩/٣/١.

(٦) مقدمة موطأ علي بن زياد ٣٧.

المذهب من أمثال أَسَدِ بنْ الفُرَات (ت ٢١٣هـ) الذي تَحَوَّلَ جَرَّاءَ توجيهِ أُستاذِهِ، من مُعَلِّمِ صبيَانٍ إلى عَلَمٍ مِنْ أَعْلَامِ الْمَذْهَبِ.

كما تخرّج في مدرسته الإمام سُحْنُون بْنُ سعيد بنْ حَبيبِ التَّنُوخي (١٦٠-٢٤٠هـ) الذي كان لا تُثْنِيهِ مشاقُّ الطريق ومخاطِرُهُ، وضيقُ ذاتِ يَدَيْهِ، عن السفر إليه من القيروان، ليتلقّى عنه. وقد حَبَّبَ إليه ابنُ زيادٍ الارتحالَ فَقَصَدَ المشرقَ إلاّ أَنَّهُ لم يُدرِكْ مالِكاً فقد مات قبل وصُولِه بقليل، إلا أنّ رحلَتَهُ تلك لم تذهَبْ سُدًى فروى عن ابن وَهْب[1] وسُفيانَ بْنِ عُيينة، وعبدِالرحمان بْنِ مهدي، وحفصِ بْنِ غياث، والوليدِ بْنِ مُسلم، وغيرِهِم من أقطاب الحديث والمغازي وٱلسِّيَر، حتى أنَّ ٱبْنَ وَضّاحٍ قال (كان سُحْنُون يروي تِسْعَةً وعشرين سَمَاعاً، وما رأيتُ في الفقه مِثْلَ سُحْنُون في المشرق)[2].

وتتلمذ على يَدِ ٱبن زِيَاد عددٌ جَمٌّ من العلماء كالبُهْلُول بْنِ راشد (ت ١٨٣هـ) الذي كان قرينَهُ في الطلب، كما تتلمذ على يد سحنون عدد غفير من ٱلعلماء كَشجرةَ بْنِ عيسى المعافريّ التونسيّ (ت ٢٦٢هـ) وغيرِهِ، مِمَّنْ بَرَعُوا في روايةِ الحديث وٱلإِلْمَامِ بمعارفه وفُنونه المنتشرة في المشرق. وكان سُحْنُون رضي اللهُ عنه شديدَ الغيرة على ٱلسُّنَّةِ حتّى انه كان (يراقِبُ مَدَارِسَ التعليم وقد مَنَعَ شيوخَ الصُّفْريّة والإِبَاضيَّة عن تعليم الصّبيان، لأنهم يَبُثُّونَهُمْ عقائِدَ تُخَالِفُ السُّنَّةَ وتحُطُّ من قيمةِ الفكر)[3] على ملحظ الشيخ الطاهر ٱبْنِ عاشور.

وقد تخرّج على سَمْتِهِ ابنُه محمدُ بْنُ سُحنون (٢٠٢- ٢٥٦هـ) الذي رحل إلى المشرق وعاد فكان (عالِما بالآثار صَحِيحَ ٱلْكِتَاب..)[4]، وقد بدأتِ الجهودُ العِلمية تُؤْتِي أُكْلَهَا فظهرت على يده بواكيرُ التأليفِ في الحديثِ الشريف فكان له

(١) أخذ عنه مغازيه إجازة.

(٢) الديباج المذهب ١٦١.

(٣) أليس الصبح بقريب ٦٨.

(٤) الديباج المذهب ٢٣٦.

كتـابُ «المسنـد فى الحـديث» وهو كبير «وكتاب السِّيَر»، «ورسالتُه في السُّنَّةِ»، وكتاب «تفسيرُ الموطأ» في أربعة أجزاء)[1].

آلسُّنَّة في العهد العبيدي والصنهاجي:

ولئن عاشت البـلادُ في عهـد الشيعـة العُبَيْدِيِّين ـ آلَّـذِينَ قامت دولتُهم سنـة ٢٩٧هـ ـ محنةَ اضطهادِ السُّنة وأهْلِهَا، وعاشت في العهدِ الصنهاجي اضطراباتٍ وقلاقِلَ انتهتْ بالغَزْو آلْهِلاَلِيِّ[2] فاننا لَمَّا نتصفَّحُ كُتُبَ التراجم في تلك الحقبة نقف على طائفةٍ من العلماء قاموا بِكُلِّ قُوَّةٍ يَنْفَحُونَ عن آلسُّنَّةِ. وفي الوقت نفسه يُعَلِّمُونها الناسَ وَيَنْشُرُونَهَا بينهم[3]. من أمثال الشيخ المُرَبِّي الصالح مُحْرز بْن خلف (ت ٤١٣هـ) الذي ينتهي نسبُه إلى سَيِّدنَا أبي بكر الصِّدِّيق فإنه إثر تَحَوُّلِهِ عن أريانة والمـرسى[4] وآسْتِقْـرَارِهِ بوَسَطِ الحـاضـرة تَمَحَّضَ لإقْـرَاءِ النـاسِ القرآن وتعليمِ الحديثِ والفِقْه[5].

ولاشـك أنَّ روَّادَ الزيتونة من الطلاب كانوا يَنْتَفِعُونَ بعلمه. فهو من أساتِذَتِهَا بالولاء والجِوار إن لم يكن أُسْتَاذاً في رحابها أصالةً.

وكان معاصِرُهُ الشيخ الزاهد أبوعِمْران الفاسي يقوم بنفس آلدَّوْر في القيروان يُعِينُه على ذلك أنّه من أقطاب آلعِلْم والحديث[6].

الحديث في العهد الحفصى[7] (٦٠٣ ـ ٩٨١هـ) ـ

وَبَعْدَ خراب القيروان سنة ٤٤٩هـ وخُمُود الفتن التي كانت سِجَالاً بَيْنَ الصناهجة

---

(١) المصدر السابق ٢٣٧.

(٢) أليس الصبح بقريب ٦٩ (وَبَنُو هِلاَل هُمْ إِحْدَى قبائل أعراب صعيد مصر التِي سَلَّطَهَا الخليفة آلفَاطميّ على إفريقيّة انتقاماً من الصَّنْهاجيين الذين حوّلوُا وَلاَءَهُمْ إلى الدّولة العبّاسيّة آلسُّنِّيَّة رُضُوخاً للرّغبة آلشّعبيّة).

(٣) انـظر «مـوقف متصوّفـة إفريقية وزهّادها من الاحتلال العبيديّ» ص ٢٦ أبولبابه حسين ـ دار اللواء للنشر والتوزيع ـ الرياض ـ ط ١ ـ سنة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٤) أَرْيَانَة وآلْمَرْسَى: ضَاحيتان من ضواحي تونس آلعاصمة.

(٥) تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد ١٢٣.

(٦) المصدر السابق ١٢٤.

(٧) لقد سبق هذا العهدَ العهدُ الموحّدي الذي دام من ٥٥٥ حتّى ٦٢٦هـ.

وٱلْمُوحِّدِينَ وبَعد استقرارِ الأَمْر للحفصيّين حَيْثُ خَلَعَ الأميرُ أبوزكرياء يحيى بْنُ عبدِالواحد الحفصى طاعةَ الموحّدين وأعلن اسْتِقْلاَلَهُ بِٱلبلاد سنة ٦٢٦هـ ، وقد بايَعَتْهُ ٱلأندلُسُ بعْدَ ذلك بعشر سنوات تقريبا ٦٣٧هـ نَبُهَ ذِكْرُ تونس ورحل إِلَيْها من علمـاء الأندلس ما أعطى دفعا للعلم بتونس ٱلعاصمة[1] التي تحوّلتْ إلى قاعِدَة للدّولة وبذلك عَرَفَ جامع الزَّيْتونة عَهْدَ ٱزْدِهَارٍ، لم يَسْبقْ له أَنْ عَاشَهُ، نعَمْ لقد أثبت التاريخُ أنّه من أَقْدَم معاهِدِ العِلْمِ بتونس، وقد عَرَفَتْ رِحَابُهُ تدريسَ العلوم منـذ المائة الثانية للهجرة[2] إلا أنّ حال تلك الدروس لم يكن منتظماً، حتى إذا ما قامت الـدولةُ الحفصيةُ رسَخَ تدريسُ العلم بجامع الزيتونة بفَضْلِ ما أولاهُ به الأمراءُ الحفصيون مِنَ العِنَايَةِ[3] وما أضافُوه له من خزائنِ الكتب التي تَضُمُّ ٱلآفَ المُجَلَّدَات[4] وبفضل ما أَجْرَوْهُ على العُلَمَاءِ من المرتَّبَاتِ، وكانوا قد أحدثُوا إلى جانِبِه المدارسَ[5] لِتَتَعَاوَنَ مَعَهُ على تحويلِ الحاضرة إلى خَلِيَّةِ عِلْمٍ لا يَهْدَأُ لَهَا نَشَاطٌ .

وقد عرف الحديثُ وعلومُه في عهدهم اِزْدِهَاراً كَبيراً، فكانَ صحِيحُ البخاري وصحيحُ مسلم ومُوَطَّأ الإمام مالك وشروحُه، وسيرةُ ابن اسحاق، وعلُوم الحديث لابن الصلاح وغَيْرُهَا، من المقررات والدُّرُوس الشهيرة في جامع الزيتونة .

---

(١) أَلَيْسَ الصُّبْحُ بقريب ٨٠.

(٢) وقع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في شبه تناقض في هذا الباب حيث يقول في ص ٧٣ من كتاب أليس الصُّبْحُ بقريب ـ أثناء حديثه عن تتلمذ سُحنون على عليّ بن زياد، من أنه كان يُعَلِّمُه، : (ولم أقف على ما يقتضي أنّ جامع الزيتونة دُرِّسَتْ فيه العلوم في تلك المدّة) ويقول في ص ٨٥ـ ٨٦ (وأحْسَبُ أَنَّهُ كان لجامع الزيتونة حظ وافر من دروس أهل العلم منذ عهد عليّ بن زياد صاحب مالك).

(٣) (السلطان المنتصر بالله جلب لقصره بأريانة ماء زغوان الشهير بصفائه وعُذُوبَتِه فأجرى منه قناة لسقاية جامع الزيتونة) تاريخ معالم التوحيد ١٣ .

(٤) أليس ٱلصُّبْح بقريب ٨٦.

(٥) تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد ٣٧ ـ انظر أليس الصّبح بقريب ٨٦ (وقَدْ أسندوا كُلَّ مدرسة إلَى واحد من ٱلعلماء يباشر التعليمَ بها ويراقب أحوال تلاميذها، وفرضوا الجرايات الكافية للمدرّسين والتلاميذ).

الجامع الصحيح لِلْبُخَارِيّ:

فالجـامعُ الصحيحُ للإمام البخاري الذي عَرَفَتْهُ إفريقيةُ قديما عن طريق أبي الحسن القابسي (ت ٤٠٣هـ) صَارَ من الأصول التي تُدَرَّسُ في الجامع الأعظم وتُرْوَى باستمرار حتى أنّ السلطان أبا فارسٍ عبدالعزيز كان قد أَمَرَ بروايَتِهِ يَوْمِيًّا بين الظُّهْرَيْن، وقد اعتبر المؤرخون ذلك منه مَأْثُرَةً تُعَدُّ من مفاخره الكثيرة[1].

وكان ابنُ عرفة يُقْرِئُ البخاري ويَشْرَحُه حتى انّ أبا عبدِالله مُحَمَّدِ بْن محمدِ بْن عيسى الزلديوي (ت ٨٧٤) شَيْخَ تُونُسَ في وقتِهِ[2] قال ـ في معرض حديثه عن ابْنَ عَرَفَة ـ : (وقرأْنَا عليهِ جميعَ صحيحِ آلبُخَارِي بقِرَاءَةِ شَيْخِنَا قَاضِي الجَمَاعَةِ أبي مَهْدي عيسى بْن آلْوَانُوغِي . . . وكانَتْ من الغرائِب، قراءَةَ عالِمٍ على عالِمٍ، وهُمَا من عُلَمَاءِ وَقْتِهِمَا، ثم أجازَا كُلَّ مَنْ حَضَرَ، أبُومَهْدِي بقراءته والشيخُ الامامُ بالقراءة عَلَيْهِ)[3].

وإذا كانت هذه القراءة التى أمر بها السلطان أبو فارس شكراً للّه على ما أنعم به عليهِ من النّجاة ممّـا لقِيَهُ بجَبَل أوْرَاس من الشَّدَائِدِ فَإنَّ غيْرَهَا من القراءاتِ كان لتقرير مَسَائِلِ البُخاري وتَحْلِيلِ نُكَتِهِ وشوارده وَتَرْجَمَاتِهِ التي لم يقدر على تحليلها إلاّ الجهابذةُ لِمَا اشتملت عليه من آلإشارات العلمية، الأمر الذي جعل في القديم أبا سُليمان الخطابى (ت ٣٨٨هـ) ـ أوّلَ شارح للبخاريّ ـ يتهيَّبُ آلْإِقْدَامَ على شرح الجامع الصحيح، ولم يعْزَمْ على ذلك إلا بعد تدبُّرٍ طويلٍ، وَإلْحَاحٍ شديدٍ مِنْ طُلاَّبِهِ.

آلجامع الصّحيح للإمام مسلم:

أما صحيحُ مسلم بْن الحَجَّاج فَيُفَضِّلُهُ شيوخُ المغرب على كتاب البُخَاري ـ كما

(١) تاريخ معالم التوحيد ٣٦.

(٢) نيل الابتهاج ٣١٥.

(٣) المصدر السابق ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

جاء ذَلك في مقدمة ابنَ الصلاح ـ نظراً لِسُهُولة تناوُلِه ولاجتماع أحادِيثِه في مظانها بدون تكرار ولا تقطيع ، ونظراً لِخُلُوِّهِ من التّراجم التي وَضَعَهَا البُخَاري لابراز فقهه حتى قيل: فِقْهُ البُخَارِي في تراجِمِهِ.

وقد أولاهُ الأفارقة عناية شديدة فشرحوه، وكان رائدُهم في ذلك الامامُ محمدُ بْنُ علي التميمي المازري (٥٣٦هـ) الذي كان قد سَمِعَ الحديثَ وطالع معانِيَهُ إلى جانِب تَوَسُّعِهِ في عِلْمِ المصطلح وإلْمَامِهِ بعُلُومٍ كثيرة كالطِبّ والحِسَاب والفَلك وقد أطلق على شَرْحِهِ هَذَا ٱلْمُعْلِمُ في شرْح صحيح مسلم «[1]الذى أكمل شرحه القاضي عياض (٤٧٦ـ ٥٤٤هـ) في اكمال المعلم» وضَمَّنَهُ نفائسَ التحقيقات ومُهِمَّاتِ ٱلْمَسَائِل[2] فكان عُمْدَةَ من جاء بعدَهُ من الشراح حتى أنَّ بعْضَ العُلَمَاءِ النُّقَّادِ قَالَ: (لَوْلَا ٱلإكمالُ لما عَلِمَ النَّوَوِيُّ ـ شارحُ صحيح مسلم ـ أيْنَ يَمْشِي وأيْنَ يَجِيُء ـ).

وكان ابنُ عرفه أبو عبدالله محمدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْن عرفة الْورْغمِّي التُّونُسِيّ (٧١٦ـ ٨٠٣هـ) ـ الإمامُ قد تمرس على الحديث وأخذ علومَهُ المختلفة عن شيخه محمدِ ابْن عبدِالسلام، وكان قد قرأ عليه جَمِيعَ صحيحِ مُسْلِم بلفظه، إلاّ يَسِيراً سَمِعَهُ بقراءة غَيْرِهِ عليه، كما تلقى عنه أحاديث الأحْكَامِ مع تَنْبيهِهِ على الصحيح منها والحسن وما تَعَقَّبَهُ عليها الشيوخُ[3] والأئمةُ من الملاحظات على قِيمَتِهَا (قُوَّتِهَا أوْ ضَعْفِهَا)، وكان يُدرِّسُ صحيحَ مُسْلِمٍ بشرح المازري والقُرْطُبي وعياض.

وكان اكمالُ القاضي من الكتب التي تنالُ عنايته، وكثيرا ما يشتكي من العُسْرِ الذي يلقاه في فَهْمِ بَعْضِ نُكَتِ الإكمالِ فكان يقول: (ما يشُقُّ عَلَيَّ شَيْء في الفَهْمِ مثلُ بعضِ مواضيعَ مِنَ الإكْمَالِ للقاضي عياض)[4].

---

(١) كان هذا الشرح قد نال إعْجَابَ القاضي عياض فأرسل للمازري ـ وكان بينهما مراسلات كثيرة ـ يطلب منه أن يجيزه روايته، كما طلب منه أن يسمح له بكتابة شرح للمُعْلِم نظراً لاشتمال هذا الكتاب على الأمَّهات فقط، واقترح عليه أنْ يسند لهذا الشّرح عُنْوانَ «إكمال المعلم على صحيح مسلم» فوافقه الإمام المازري ولما أنهى عياض عَمَلَهُ أهْدَى للمازريّ ـ شيخه بالإجازة ـ نسخة فنالَتْ رِضَاه ـ انظر الديباج المذهب ٢٨٠.

(٢) برنامج العبدلية ٣٣.

(٣) نيل الابتهاج ٢٧٥.

(٤) برنامج العبدلية ٣٣.

ولعل هذا المعنى هو الذي حَرَّكَ هِمَّةَ تلميذِهِ ٱلأُبِّي (محمد بن خَلْفَة بن عُمَر التونسي الوشتاتي ـ (ت ٨٢٧هـ)[1] ليشرَحَ إكمالَ عِياض (وقد ضمَّنه كثيراً من الفوائد والتحقيقات مع زيادات على الشروح المتقدّمة عليه وجَعَلَهُ تَكْمِلَةً لِمَا فَاتَ القاضِي عِيَاضاً في شرحه إكمالِ المُعْلِمِ)[2] فقارب كتابُه الكَمَالَ، ولا غَرْوَ فهُوَ مِنْ كِبَارِ المُحَدِّثِينَ في عَصْرِه.

الموطأ: : ولم تكن العنايةُ بالموطأ ـ أقدِم كتابٍ في الحديث وأوْثَقِهِ لدى المغاربة وغيْرِهِمْ ـ دون العناية بالصحيحين، فكان يُدَرَّسُ في جامع الزيتونة وفي مدارس الحاضرة بشرُوحِهِ المختلفة كالتمهيد لما في الموطأ من المَعَانِي والأسَانِيدِ لابن عبدالبر[3] ٱلذي لم يتقدّمه فيه أحَد، وكتاب «ٱلتَّقَصِّي»[4] لابْنِ عبدِالبر كذلك، وقد جمع فيه ما في الموطأ من الأحاديث ٱلمرفوعة موصولةً كانت أم منقطعة، مُرتَّبَةً على شيوخ مالك وكان بعضُ العلماء يُفَضِّلُونَهُ على كتاب الملخَّصِ في نَفْس مَوْضُوعِهَ لأبي الحَسَن القابُسِي[5].

علوم الحديث:

وكانت لعلومِ الحديثَ مَكَانَتُهَا في الدِّرَاسَةِ من ذلك أن كتابَ عُلُوم الحديث المشهورَ بُمقدِّمةَ ابْنِ الصلاح (ت ٦٤٣). كان يُدَرَّسُ وتُبْحَثُ نُكَتُهُ وأنواعُه المختلفة.

السّيرة:

أما السّيرة فكان لها حظ وافر من اهتمام الدارسين وقد كانت أَهَمُّ كُتُبهَا من

(١) انظر ترجمته في شجرة النور الزكية ٢٤٤ عدد ٨٧٤، والأعلام للزركلي ٦/٣٤٩.

(٢) برنامج العبدلية ٣٤.

(٣) انظر ترجمته في شجرة النور الزكية ١١٩ عدد ٣٣٧.

(٤) انظر الرسالة المستطرفة ١٢ ـ وكتابُ ٱلتَّقَصِّي لِمَا في الموطّأ من حديث رسول الله صلىّ الله عليه وسَلَّمَ، هو تجريد لِمَا شرحَهُ في التمهيد من أحاديث النّبي صلىّ الله عليه وسلم ممّا رَوَاهُ الإمام مالك في الموطّأ.

(٥) المصدر السابق ١٢ هامش رقم ٣.

المقررات، التي تُتَنَاوَلُ بالدَّرَسِ والتحليل، كسيرة ابْنِ اسحاق التي تُعَدُّ اَلْيَوْمَ في حُكْمِ المفقودات.

ولعل خيْرَ وثيقةٍ تُنِيرُ لنا السَّبِيلَ في مجال تدريس الحديث بجامع الزيتونة ومدارسِ تونسَ العاصِمَةِ في أواسِط القرن الثامن ما سَجَّلَهُ عبْدُالرحمان بنُ محمدِ آبنِ خَلْدون[1] (٧٣٢ـ ٨٠٨هـ) في ترجمته ـ وهو معاصر للإمام ابن عرفة ـ قال: (. . . وعرضتُ تفسيرَ أحاديثِ الموطأ لابن عبدالبر. . . وعرضت كتابَ اَلتَّقَصِّي لأحاديث الموطأ لابن عبدالبر، حَذَا فيه حُذْوَ كتابه التمهيد على الموطأ، مقتصرا على الاحاديث فقط . . ولازمتُ مجلِسَ إمامِ المحدّثين بتونس شمسِ الدين أبي عبدالله محمد بن جابر صاحب الرحلتين، وسمعت عليه كتابَ مسلم بْنِ الحجاج، وكذلك الموطأ، من أَوَّلِهِ إلى آخره، وبعضاً من الأمهات اَلخمس. . . . وكنت في خلال ذلك أنتابُ مجلسَ شيخِنَا آلإمامِ قاضِي الجماعة أبي عبدالله مُحَمَّدِ بْنِ عبدالسلام وأَفَدْتُ منه، وسمعتُ عليه أثناءَ ذلك كتابَ الموطأ، للإمام مالكٍ وكانت له طرقٌ عالية عن أبي محمد بن هارون الطائي قبل اخْتِلَاطِه. . .)[2] كما لازم، إِمَامَ المحدّثين أبا محمدِ عَبْدالمهيمن الحضرمي وأفاد منه سَمَاعاً وإجازةً، اَلْأُمَّهَاتِ وكتابَ الموطأ والسيرةَ لابْنِ اسحاق وكتابَ ابن الصلاحِ في الحديث وكُتباً كثيرة، وكانت بضاعتُه في الحديث وسائر الفنون مضبوطةً كُلُّهَا، ومُقَابَلَةً ولا يخلُو ديوانٌ مِنْهَا عن ضبطٍ بخَطّ بَعْضِ شُيُوخِهِ المعروفين في سندِهِ إلى مؤلفه[3].

وإلى جانبِ السُّنَّةِ كانت العلوُم الإسلاميةُ تجِدُ لَهَا مكانا فسِيحاً في رحاب الزيتونة (فليست روايةُ الحديث وحدها مما يُقْرَأُ في جامع الزيتونة، وإنما هوعامر بما هو أعَمّ من ذلك وأشْمَل)[4].

---

(١) انظر جُمْلَةً من مصادر ترجمته في الأعلام ٤/١٠٦.

(٢) أليس آلصُّبح بقريب ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) المصدر السابق ٨٣ ـ ٨٤.

(٤) تاريخ معالم التوحيد ٣٥.

ومما يدعم هذه الدِّرَاسَاتِ الحديثيّة والفنونَ الإسلامية المختلفة ما حشده رجالُ الدّولةِ الحفصية من خزائن الكتب بجامع الزيتونة التي أعدُّوا لها مقاصِيرَ خاصَّةً بهَا، وقد أوقفوها على الطَلَبة، وكان كل أمير يحرص على أنْ يُسْهِمَ في دَعْمِ هذا المَجْد بمكتبة جَدِيدَةٍ يُضِيفُهَا إلى الرصيد النامي لتلك المكتبة وكانوا لا يبخَلُون ببذل كل غال ونفيس في سبيل الحصول على كل جديد من الكتب العلمية حَالَمَا تَبْرُزُ للوجود، فهذا آلأَمِيرُ أبوفارس عبدُالعزيز الحفصي ـ الذي حبّس حواليْ ثلاثين أَلْفَ مُجَلَّدٍ على مكْتَبَةِ الجَامِعِ ـ يأمُر باستنساخ نسخةٍ من فتح الباري لابْنِ حجر حالَمَا بَلغَهُ خبرُهَا[1] واذا عَلِمْنَا أنّ أبافارس (توفي سة ٨٣٧هـ وأن ابن حجر توفى سنـة ٨٥٢هـ) ادركنا شغفَ الأمير بالعلوم وسرعةَ وقُوفِهِ على الجديد مِنْ كُتُبِها، فضلا عَمَّا صَدَرَ مِنْهَا قَدِيمًا.

وإن المكتبة العبدلية (نسبة إلى أبي عبدالله محمد بن الحسن) التي كانت تُعتبر من أغنى المكتبات، تُعَدُّ من حَسَنَاتِ العَهْدِ الحفصي وأيادِيهِ البيضاء على العلوم الإسلامية، بمُخْتَلَفِ فُنُونها وفي مُقَدّمَتهَا الحديثُ الشريف[2].

الحديث فى القرن العاشر:

ـ ما أن دَبَّ الضَّعْفُ في منتصف القرن العاشر إلى مُؤَسَّسَاتِ آلدّولة الحفصية التي نخرتها الخلافاتُ والأطماعُ الشخصيةُ؛ حتى انتقضتْ عُرى العِلْمِ بعد تلك الإشـراقـة الزاهرة، وكان الاحتلالُ الاسبانى الهَمَجِي قد أَتَى على ذخائر جامع الزيتونة من الكتب فانتُهِبَتْ نَفَائِسُهُ أو أُتْلِفَتْ. . .

وان تخليصَ البـلادِ من حقد الصليبيّين الإسبان، على يد المسلمين الأتراك وتحويلها إلى وِلاَيَةٍ عُثمانية سنة (٩٨١هـ) لَمْ يأت بشيء يُذْكَرُ في مَجَالِ آلعِلْمِ فقد بقي شأنُه خامِلاً طيلَةَ عَهْد المماليك الترك، ومما زاد الطينَ بلَّةً الْوَبَاءُ الذي

---

(١) برنامج العبدلية ٢/١٥٢.

(٢) انظر شجرة النور الزكيّة (التتمة والخاتمة) ١٤٩/١٥٠/١٥١/١٥٥.

جَرَى في البلاد سنة ١٠٥٣هـ وقد تلاه وَبَاءٌ ثانٍ بَعْدَ نِصف قَرْنٍ تقريباً سنة ١١٠٠هـ فأتى على البقيةِ الباقيةِ من العُلماء وبذلك انقطع العِلْمُ بتونس بهذين الفناءَيْن على مَلْحَظِ الوزير السراج[1] سيما والعهدُ العثماني الأول (٩٨١-١٠٠٧هـ) كان عَسْكَرِيًّا فلم يكُنْ للعلم عندهم سوقٌ نافقة.

الحديث في العهد العثماني الثانى (١٠٠٨-١١١٧هـ)

لئن تواصل خُفُوتُ نُورِ العلم في هذا المعهد فإن نجم الشيخ العالم ابن عبدِالله مُحَمَّدٍ تاج العارفين العُثماني - الذي ينتهي نسبه إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان، قد جَلىَّ بعضَ الظلام، وأعاد لمجلس الحديث بالزيتونة بعض إشراقَتِهِ حَيْثُ كان يُدَرّسُ البخاري رِوَايَةً ودراية[2]، وكان قد تَخَرَّجَ على يَدِهِ ابنُهُ الشيخ أبوبكر (ت ١٠٩٣هـ) - فجلس لإقْرَاءِ صحيح البخاري درايةً بجامع الزيتونة وعُمْرُهُ لا يتجاوز سبْعَ عَشْرَةَ سنة -[3] وقام بِعِلْمِ الحديث الشريف أحسن قيام (وشهد له بالدراية علماء الإسلام فكان في هذا الفن نسيجَ وَحْدِهِ فقد حصُلَ له سِرُّ أبيه وبَرَكَةُ جدِّهِ)[4].

الحديث في عهد الدولة الحسنية ١١١٧-١٣٧٧هـ (١٧٠٥-١٩٥٧م)

وشاء اللهُ أَنْ يَعُودَ للزيتونة سالِفُ عهْدِهَا من الإشعاع العِلْمِّي فقيَّض اللَّهُ لها رِجالاً في العهد الحسيني يعرفون للعلم دوره وأهمّيّته، فأعادُوا ترتيب الدروس في الجامع الأعظم بعد انقطاعٍ وأَجْرَوْا المرّتبات على القائمين بها[5]، وَجَدَّدُوا خزائِنَ كُتُبه، وكان نصيبُ الحديث النبوي وَافِراً يُتَرْجِمُ عَمَّا يَكنُّه القومُ له من وفور العناية والاحترام.

---

(١) شجرة النور الزكية (التتمة والخاتمة) ١٥٤ أليس الصُّبْحُ بقريب ٨٨-٨٩-٩٠- تاريخ معالم التوحيد ٣٧-٣٨.

(٢) تاريخ معالم التوحيد ٢١٩-٢٢٠.

(٣) المصدر السابق ٢٣. (٤) المصدر السابق ١٢٠.

(٥) أليس الصبح بقريب ٩٠-٩١ وبذلك ارتفع عدد المدرّسين في عهد حسين بن علي باي إلى نيف وأربعين بعد أن كان في العهد المرادي ثمانية فقط - انظُر تاريخ معالم التوحيد ٣٨ هامش - ٢.

وكان من أبرز أساتذة العهد آلحُسَيْنِيِّ الأول محمدُ زيتونة (ت ١١٣٩هـ) فقد دَرَّسَ صحيحَ مسلم والبخاري والموطأ، والجامعَ الصغير[1] وغيْرَهَا من الكتب، وقد بَرَّزَ في علم الحديث فكتب شَرْحاً لمنظومة البيقوني في المصطلح وشرحا على مسلم[2].

ونـال الجـامـعُ الأعظم من الأمير آلحُسَيْنِـي العاشر المشير أحمد باي الأول (١٢٥٣ـ ١٢٧١هـ) عناية بالغة فقام بعمل تصحيحي واصلاحي لمناهج الدراسة فأصدر في ٢٧ رمضان ١٢٥٨ قانونه المعروف بالمُعَلَّقَة[3] فظهرتِ الدروسُ الشهيرَةُ بالجامع الأعظم التي كان من أبرزها دروسُ الحديث الشريف.

وتـوالت التصحيحـاتُ في عهـد خير الدين باشا التونسيّ بقانون سنة ١٢٩٢ فضُبِـطَتْ المنـاهجُ والشهاداتُ وقد جُعِلَتْ دروسُ التفسير والحديثِ في التعليم العـالي ـ حسب هذا القـانون ـ إلْزَامِيَّةً[4] وفي ٤ ذي الحجّة سنة ١٣٥١ أي بعد الاحتلال الفرنسي بأكثر من نصف قرن صدر قانونٌ آخَرُ لإصْلَاح التعليم بالجامع الأعظم فكان للحديث فيه اثنا عشر دَرْساً في الابتدائي، وثلاثةُ دروس في الثانوي ودرسان في العالي، كما أنّ السيرة النبوية نالت سِتّةَ دُرُوس في الثانوي[5] الأمر الذي يُفَسّرُ إدْرَاكَ المُشَرِّعين لأهَمّيةِ الحديثِ والسيرةِ وَعَنَايَتَهُمْ البالِغَةَ بِهِ .

وآلجدير بالذّكر أنّ انتشار الوعي بين طلبة جامع الزيتونة جعلهم يَتَولَّوْنَ بأنفُسهم المطالبة بتحسين أوضاعهم الدّراسية، وتطوير المناهج بما يحفَظُ للأمّة شخصيّتها الإسلامية ويوفّر لها التّقدُّمَ والمنعة، فكان أوّل إضراب شنّوه في هذا المضمار سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م ومن ذلـك التـاريخ أضحت كل دعوة إلى العروبة والإسلام

---

(١) أليس الصبح بقريب ٩١.

(٢) تاريخ معالم التوحيد ١٩٠ هامش رقم ١.

(٣) لتعليق ظَهيرِهِ بالحائط الغربي قرب باب الشفاء بجامع الزّيتونة.

(٤) أليس الصُّبْحَ بقريب ٩٨ـ ٩٩.

(٥) تاريخ معالم التوحيد ٤٨.

والتّحـرّر من ربقة الاستعمار الفرنسي مصدرها جامع الزيتونة وفروعه التي عمّت أرجاء البلاد التونسيّة وتجاوزتها إلى آلجزائر الشقيقة.

وقـد تطوّرت منـاهج التدريس والمقررات الدراسيّة في الجامع الأعظم وفروعه بجهود مشيخته وطلابه، فما آنتصف القرن العشرين للميلاد حتى أصبح الجامع الأعظم يُدرّس لطلبته العربيّة والعلوم الشرعيّة والرياضية والطبيعيّة ومختلف الفنون باللسان العربيّ ويُدرّس إلى جانب ذلك اللغات الأجنبية التى يُطلقون عليها اسم «اللغات الحيّة» !

وقد نبغ طوال العهد الحسيني فحولٌ من علماء الحديث نشروا السنة وعَلَّمُوهَا الناسَ، فهذا الشيخ إبراهيم الرياحي (ت ١٢٦٦هـ) دَرَّسَ شرْحَ آلقَسْطَلاَّني على البخاري[١] أمّا الشيخ صالح النيفر (ت ١٢٩٠هـ) الإمامُ الحادي وَآلْأَربعون لجامع الـزيتـونة فقد كتب أخْتَاماً كثيرة على أبواب عِدَةٍ من الجامع الصحيح للبخاري وتَصَدَّى لشرح آلْمُوَطَّإِ وكَتَبَ في ذلك كتابةً جليلةً تضمَّنْت آلمِقْدَارَ الذي دَرَّسَهُ منه بجامع الزيتونة[٢].

وكان شيخُ الإسلام أحمدُ مُحَمَّدُ كريّم ١٢٤٣ ـ ١٣١٥هـ أَلَمَّ بجملة من أُمَّهَاتِ كتبِ الحديث أهّلَتْهُ لكي يكون مُدَرِّساً مرموقا، وقد شرح القَسْطَلاَّنِي على البخاري وهو آخِرُ دُرُوسِهِ[٣]. وكان قد كتبَ نَحْوَ عشرين تعليقا على أحاديثَ من صحيح البخاري أَلْقَاهَا بدُرُوس الأختام الرمضانية بالجامع الجديد[٤] وكان العلامة الشيخ سالم بوحاجب (١٢٤١ـ ١٣٤٣) قد دَرَّسَ بالزيتونة كُتُبًا حديثّية مُهِمة مِثْلَ الموطأ وصَحِيح البخاري[٥] وقد كتب شرْحًا جامعا لجملة من أبواب صحيح البخاري[٦].

(١) معالم التوحيد ١٣٤.

(٢) المصدر السابق ٣٤.

(٣) تراجم الأعلام ١٠٧.

(٤) المصدر السابق ١١٢.

(٥) المصدر السابق ٢٢٠ ـ ٢٢٧.

(٦) تاريخ معالم التوحيد ٢١٣.

ولم تكن دروس الحـديث بمَنأى عن الحياة، وانما كانت لعلماء الزيتونة من الكفـاية ما جعلهم يُنـزِّلُـونَ مشاكِلَ العصر على ما يُدَرّسُونَهُ من السنة ويَرْوُونَهُ من الحديث، فهذا الشيخ أحمد بن الخوجة شيخُ الإسلام (ت ١٣١٣هـ) تناول مَسْأَلَةَ آلإِعْلام بدُخول شهر رمضان بالبرق. . . كما كان الشيخ محمد النجّار يتناول في مجالسه الحديثيّة آلاجْتِهَادَ، والوسيلةَ، وآلْكَسْبَ، وغَيْرَهَا مِنَ آلْقَضَايَا التي تشغل الناسَ في عصره .

على أنَّ ثَمَّةَ سُؤَالاً قد يخامِرُ آلْمُتَتَبِّعِينَ لهذا آلبحث وهو: ماهو نصيبُ كُتُب الرجال والجرح والتعديل ومُخْتَلَفِ الحديث ومُشْكِلِهِ وآلنَّاسخ والمنسوخ ونحو ذلك من عنايةالزيتونة. والجواب هو أنّ هذه الموادّ تدرس أثناء الشرح كما قد تخصّص لبعضها دروس مستقلة، وفضلا عن ذلك فإن كتب هذه الفنون الموجودة بأعداد وافرة في مكتبات الجامع والمدارس تُمَكِّنُ الطلاب من تكميل معلوماتهم وتنويعها وتوسيعها وتركيزها فقلّما يوجَدُ شرح لكتاب من الأمهات لا توجد منه نسخة أو نسخ موقـوفـة على طلاب الجـامـع أو إحدى المدارس الأخرى، من أحباس الأمراء والـوزراء وأهـل البـر والخير وكـذلك القول في كتب الغريب وأحاديث الأحكام والمسانيد والمصطلح والشمائل ودلائل النبوة وغيرها.

وان الدراسة الشمولية المستفيضة للأحاديث النبوّية التي يتولى القيام بها شيوخ الجـامع الأعظم وأَسَاتذَتُه لتنبىء عن غزارة المادة العلمية وآتّساعها وتَكَامُلٍ بين فروعها المتشعّبة كما تنبىء عن القيمة العلمية التي كان عليها الشيوخ والطلاب معا.

وإذا أخذنا مثالا على تلك الدروس مجالس الشيخ محمد العزيز جعيط ، التي هي في متناولنا جميعها، حيث طُبعت ونشرت، والتي شرح فيها بعض الأحاديث ممـا خرّجـه الشيخان البخاري ومسلم أو أحدُهما، فإننا نخرج بصورة قد تكون الأقرب إلى الصحة عن طرائق تدريس الحديث في العصور المتأخرة ففيها البحوثُ اللغـوية والبـلاغية وما يتخلّلها من آلِاستشهادات بالقرآن والحديث والشّعر وفيها

النكت النحوية والصّرفية، والتعاريف الشرعية وآراء الفقهاء وفيها التوفيق بين الأحاديث المختلفة والتخريج الصّحيح للأحاديث المشكلة وتحديد ماهو منسوخ بالاستعانة بالتاريخ والسيرة وبيان ما هو تَوْقِيفِيّ تَعَبُّدي وما هو معلوم معلّل، وبيان أسرار بعض التوجيهات النبوية، ومايستنبط من الأحاديث من الأحكام، وما يستخلص منها من الفوائد. . . مما يجعلنا نقف أمام موسوعة علمية لا يتابع دقائقها ويدرك خصائنها إلا خبير أَلَمَّ بعِلْمَيْ الوسائل والمقاصد. وهي طرائق ومناهج تصنع الفحول الذين يُبْدِعُونَ ويبتكرون في نطاق الإيمان والعلم الصحيحين لأَنَّهُمْ يَمْتَحُونَ من بحر العيون والأصول الصافية فيستقلّون ما سواها من السواقي والجداول والفروع.

ٱلزَّيْتُونة في عهد الاستقلال

وغَدَاة الاستقلال (٢٠ مارس ١٩٥٦م) اخْتَارَ ٱلمسؤولون على حظوظ ٱلتّعليم إغلاق جامع الزيتونة وَفروعه. توحيدًا للتعليم بٱلبلاد، فَتَحَوَّلَ «الجامع الأعظم وفروعه» إلى «جامعة زيتونيّة»، وما لبثت هذه الجامعة أن انحسرت في «كلية» أطلقوا عليها اسم «كلية الشريعة وأصول الدّين»، وهي تُعْنَى بتدريس العلوم الشرعية وفي مقدّمتها كتاب الله وسُنّة رسوله صلىّ الله عليه وسلم، والفقه وأصوله والعقيدة والفِرق، والتربية والتاريخ وتاريخ الأديان، والفلسفة والتصوّف.

وتتولى وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في كلّ عامٍ جامعيّ توجيه العدد المناسب إلى الكلية من الطلبّة حملة الثانوية ٱلعَامّة (بكالوريا) ـ القسم الأدبيّ.

وفي العام الجامعي ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤م استُحْدِثَ بالكلّيّة قسمُ الدّراسات العليا يمنح طلبتَهُ شهَادة دكتوراه المرحلة الثالثة (ماجستير) فى القرآن والحديث والفقه وأصوله وأصول الدّين. وشهادة دكتوراه الدّولة (دكتوراه) في العلوم ٱلإسلاميّة.

وبَعْدُ فالجامع الأعظم بقي منذ إنشائه أمينا على ما حُمِّلَهُ من رسالة تبليغ ٱلإسلام وتنوير معالمه للدارسين وقد استطاع أن يحفظ لا لتونس وحدها أصول دينها ومقوّمات

شخصيتها من التيارات الصليبية والفوضوية الملحدة، وإنما كانت ظلاله الوارفة تمتد لِتُظلَّ شعوباً متعدّدة، وأضواؤه الكاشفة تفيض إلى أبعد من حدود البلاد لتنير الدرب للمؤمنين وتكشف وتعرّي المضللين وتستمد عطاءها وأمدادها من المَصْدَرَيْن الأساسِيَيْنْ كتاب الله وسنة الرسول التي وجدت في رحاب الجامع الأعظم من العناية ما زَكَتْ به معارفُ الطلاب وطَهُرَتْ به نفوسُهم وأكسبت هذا المسجد العتيقَ طِيبَ الأُحْدُوثَةِ وخُلُودَ آلذِّكْرِ.

وصلىّ الله على نبيّنا محمدّ وعلى آله وصحبه وسلّم.

المراجـــع

١ - الأعلام - خير الدين الزركلي - ط ٣ بيرت (بدون تاريخ).

٢ - أليس الصبح بقريب - فضيلة الأستاذ محمد الطاهر ابن عاشور - الشركة التونسية للتوزيع ١٩٦٧م.

٣ - برنامج المكتبة العبدلية (جامع الزيتونة الأعظم) الجزء الثاني - المطبعة الرسمية العربية بتونس - ١٣٢٧هـ .

٤ - تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد - محمد بن الخوجة - المطبعة التونسية - ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

٥ - التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح - الحافظ أبوالفضل زين الدين العراقي - الطّبعة الأولى - المكتبة السلفية بالمدينة - ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٩م.

٦ - تهذيب التهذيب - ابن حجر العسقلاني - ط ١ - حيدر اباد الدكن ١٣٢٥هـ .

٧ - الحلل السندسيّة في الأخبار التونسية - محمد بن محمد الأندلسي الوزير السّراج - الدار التونسية للنشر - ١٩٧٠م.

٨ - الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب - برهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون - ط ١ - مصر ١٣٥١هـ .

٩ - الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة - محمد بن جعفر الكتاني ط ١ - بيروت - ١٣٣٢هـ .

١٠ - شجرة النور الزكية محمد محمد مخلوف - دار الكتاب العربي - لبنان (بدون تاريخ).

١١ - مجالس العرفان ومواهب الرحمان - محمد العزيز جعيط - الدار التونسية للنشر ١٩٧٢م.

١٢ - موطأ علي بن زياد - تقديم وتحقيق فضيلة الشيخ محمد الشاذلي النيفر - الدار التونسية للنشر - المحرم ١٣٩٩هـ .

١٣ ـ موقف متصوّفة إفريقيّة وزُهّادها منّ الاحتلال العُبَيْديّ ـ أبولبابه حسين ـ دار اللواء للنشر والتوزيع ـ ط ١ ـ الرياض ـ **١٣٩٩**هـ/ **١٩٧٩**م.
١٤ ـ نَيْل الابتهاج بتطريز الديباج ـ أحمد بابا التنبكتي (مطبوع على هامش الديباج).